



## السيد محمد توفيق البكري

كأديب وشاعر

منذ عدة سنوات تجول بخاطري رغبة شديدة في الكتابة عن السيد محمد توفيق البكري ، غير أن شواغل الصحافة وطريقتها الكتابية في انتهاز المناسبات ، ومسايرتها لحوادث الأيام ، وتناولها كل ما يعلق باذهان الجمهور ، وما يدور في خلده سواء أ كان جداً أم هزلاً ، مهماً أم تافهاً — كل ذلك شغلني كثيراً عن كتابة شيء عن هذا الأديب الكبير الذي ابتسم له الدهر حيناً ثم قلب له ظهر المحن ، وأزجى إليه من أوهام النفس ، واضطراب الحس ما شقى به عهداً طويلاً ، وحرّم دولة الأدب العربي خدماته ، ومحا اسمه من سجل الأديباء الأحياء قبل وفاته بعشرين عاماً .

وقد كنت راغباً شديد الرغبة في الكتابة عن هذا الأديب ، لأن كثيرين يجهلون ، ولأن بعضهم ما يمسك بكتابه « صهاريج اللؤلؤ » ويتصفح فيه سطراً أو سطرين حتى يدعه جانبا ، ويتمثله كالحريري في أسلوبه وإغرابه . وللحريري في مقاماته شهرة بهذا الاغراب ، جعلت هذه المقامات — وأأسفاه — ككأ مهملاً ، وأثراً مطموساً لا تستبينه العيون ، وليس لها في النظر إليه نصيب .

وإني لأذكر ان استاذآلى كنت أتلقى عليه فن الالشاء ، رأى معى يوماً هذه المقامات ، فاخطفها من يدي وكاد يقذفني بها انتقاماً منى لقراءة هذه المقامات ، وجعل يوبخنى وينهأنى عن تصفح مثل هذه الاسجاع الغريبة والالفاظ الضخمة ، كأنه خشى أن انسج على هذا المنوال ، وانهج هذا النهج في زمن يرتاح الى السهولة وينفر من الصعوبة ، ويطمئن الى رفاهية العيش ، ويفر من خشونته .

وما كان هذا الاستاذ ليصرفنى عن اسلوب الحريرى وامثاله لولا أننا فى زمن غير زمانهم ، وفى بيئة غير بيئاتهم ، ولكل زمان اسلوبه ، ولكل بيئة ذوق تستسيغ النسيج على مثاله .

وما كان الحريرى وامثاله كالهذيانى الا فى زمن استساغ هذا الاسلوب ، أو قبله على الاقل ، ولم يرفيه ما يراه أهل العصر الحاضر من الركاكة والتنافر والتنكب عن الذوق السليم .

وكذلك كان السيد محمد توفيق البكرى فى كتاباته النثرية وفى مؤلفه « صهاريج اللؤلؤ » على الاخص . فقد كان فى زمن يقبل هذا الاسلوب المسجع وكان قرناؤه ينجون هذا المنهج حتى الذين اشتهروا منهم بالزمامة الأدبية والعلمية والخطابية كحمود سامى باشا البارودى الشاعر الفحل ، والاستاذ الامام الشيخ محمد عبده ، والزعيم الأكبر سعد زغول باشا . واليك بعضاً من كتاباتهم فى هذا العهد الذى كان يجمعهم جميعاً ، والذى بدأوا فيه النهضة الادبية التى نجحى ثمارها فى هذه الايام .

قال المرحوم محمود سامى باشا البارودى فى مقدمة ديوانه : « اللهم انى احمدك على ماهديت ، واشكرك على جزيل ما أسديت ، واستعينك على رماية ما اسبغت من نعم ، واستهديك لشكر ما اثبت من الدعم ، واعوذ بك من عثرات اللسان ، وغفلات الجنان ، كما اعوذ بك من غدرات الزمان ، وبغفات الحدثنان ... » الخ .

وكتب الاستاذ الامام الشيخ محمد عبده فيما كتب وهو مجاور بالازهر تحت عنوان « الكتابة والقلم » :

« ان مما انبسطت به ايدي الضرورات ، وانتجته مقدمات الحاجات ، انشاء لسان القلم ، نائباً عن المتكلم فيما يتكلم ... »

وقال المرحوم سعد باشا زغول فى كتاب ارسله الى الاستاذ الامام الشيخ محمد عبده :

« تفضل أدام الله فضله على خريج حكمه ، الناشئ فى نعمه ، بكتاب هو المحكم آياته ، المعجز دلالاته ، الشاقى لما فى الصدور ، الكاشف لحقائق الأمور ، الهادى الى سبيل الرشد والى صراط مستقيم ، فسر لمرآه ، سرور المريض بالشفاء وافاه ،

وتلاه متدبراً دقيقاً معناه ، مكرراً رقيق مبناه ، فازداد إيماناً بفضل مولاه ، ويقيناً بحكمة من أوحاه ، وشكراً لله على صحة من أهداه ، دامت نامية وارفة الظلال « ... وبديهي أن المفخور له سعد باشا زغول لو كان قد استمر على هذا الاسلوب الى وقتنا هذا لما لقي من يعجب ببيانه ، ولما جذب اليه المثقفين وطامة الجمهور .

على أن السيد محمد توفيق البكري أوغل في هذا الاسلوب ، وتعمق فيه كثيراً وساعده في ذلك ثروته اللغوية ، وحفزه اليه في كتاب « صهاريج اللؤلؤ » حبسه ان يضمن سطوره مُنجباً من الحكم ، وأقاول من جوامع الكلم ، وأمثولات في المواعظ والاعتبار ، وألفاظاً مهجورة في هذا الاوان . قال في مقدمته :

« .. وقد التزمت في اكثر عبارتها فصح الحجاج ، ولسان رؤبة بن العجاج ، وأنا اعلم ان من الادباء من ينفر من الغريب ، ولا ينفر من الدخيل ، لاستيلاء العجمة على هذا الجيل ، فلم يثنى ذلك عن ان اودع كلام الاعراب بهذا الكتاب ، واحذو فيه في اثر تلك الرفاق ، بما في هذه الاوراق :

ابن امرؤ القيس والعداري إذ مال من تحته الغبيط  
استنبط العرب في الموامي بعدك واستعرب النبيط «

إذن لم يكن ليكتب السيد البكري هذه الصهاريج بهذا الاسلوب الا لتلك الغاية التي رمى اليها من أن يجيي اسلوب فصحاء العرب ، ويعيد ما درس استعماله من الفاظهم العربية المهجورة . وهذه غاية شريفة ، ولا شك ، ولكن هل أحسن السيد في ماذهب اليه ؟

ان من يطلع على هذه الصهاريج يشهد بان مؤلفها غنى المادة ، قوى الحافظة تواتيه الالفاظ الغريبة كما تطاوعه الالفاظ السهلة ، ولكن سجعاتها تختلف بين القوة والضعف ، فهو يجيد حيناً ، ويتكلف حيناً آخر ، وهو يسمو الى المعاني البليغة ، وينزل منها الى التافهة . وربما ضاعت المعاني البليغة في السجعات الركيكة أو الالفاظ الحوشية . ولكن يمكننا أن نقول إنه سجعٌ من الدرجة الاولى وكاتب من الدرجة الثانية .

وقد تخلل هذه الصهاريج شعر هو فصل الخطاب في قيمة هذا الرجل من الادب العربي . فكل من يقرأ هذا الشعر تأخذه تلك النصاحة وهذه السلاسة

اللذان امتاز بهما السيد في شعره عنه في نثره ، وكان جديراً بان يكون في الطليعة من شعراء العصر الحاضر .

ويمكنك أن تفهم الفارق بين شعره ونثره فيما كتبه وفيما نظمه في وصف سفينة تشق عباب البحر . فقد قال في كلمة نثرية :

« .. واخذت السفينة تشق اليمَّ شقَّ الجلم ، في ريح رخاء ، وزعزع ونكباء .  
فهي تارة في طريق معبد ، وميث مطرد ، وطوراً فوق حزن وقردد ، وصرح مرد ،  
فيئنا هي تنساب كالحباب اذا هي تلحق بالباب ، وتلحق كالعقاب ، فتحسبها تارة  
تحت القتام جبلاً تقشع عنه الغمام ، وتخالها مرة عائماً على شفا ، قد غاب الالهامة أو  
كتفا ، والبحر آوثة كالزجاج الندي أو السيف الصدى ، يلوح كالصفحة المدحوة ،  
أو المرأة المجلوة ، وحيناً يغرب زخاره ، ويموج مواره ، فكأتما سيرت الجبال ، وكأتما  
تري قباباً فوق افيال ، وكأتما قبوراً في اليم تحفر ، وألوية عليه تنشر ، وكأن العدة  
( البحر ) يمحض عن زبد ، وكأن الدوى من جرجرة الآذى زئير الأسد ،  
وهزيم الرد » .

هذا ما كتبه نثراً في وصف السفينة والبحر ، واقراه بعد ذلك شعراً فلا شك انك واجد بينهما فارقاً عظيماً ، قال :

أجدك هل تدري وقد سرتُ والدجى  
يخال على الآفاق درعاً مسرّداً  
أخوض عباباً فوق فلكٍ تظنها  
على سروات اليم قصرأ مشيداً  
تهادى به مثل العقاب وتارة  
ترقى من الامواج صرحاً بمرّداً  
وترزم حيناً فيه حتى كأنها  
تجوز على العلات حزناً وقرردا  
خضارة مرآة السماء فلم تزل  
تري وجهها فيه وإن بعد المدى  
فان أشرقت فيه الغزالة خلتها  
كعين بجوف البحر تقذف عسجداً  
وان لاح تحت الماء بدر رأيته  
كأويّة يعلو على متنها صدى  
وربّما خلت النجوم عشية  
لآلىء في قاعه منى وموحداً

هنا فارق عظيم حقاً بين شعره ونثره كما في غير هذا الموضوع مما نظمه ونثره ،

حتى اننا نستطيع أن نقول إن السيد توفيق البكرى شاعر من شعراء الطبقة الاولى على قلة ما نظمه ، ولو كان الزمان قد اتسم له كما اتسم لغيره أو لو أنه امهله حتى يتم خدماته للأدب لاخرج ثروة شعرية يقدرها كل لاديب ويعجب بها كل قارىء .  
واننا لنتمثل في هذا الصدد بتلك الايات التى قالها :

وفى وسعة المرء نيل العلاء      وقد يمنع المرء ما يمنع  
صغير من الامر يلبيه عن      بلوغ العظام أو يقطع  
كعين تحيط بهذا الوجو      دجيماً ويحجبها اصبع!

وللسيد توفيق شذرات شعرية تحوى حكماً بالغة ، منها :

الناس يخشون من جاه المليك وما      لديه لولا هم فى ملكه جاه  
كصانع صنماً يوماً على يده      وبعد ذلك يرجوه ويخشاه!  
ومنها :

لا تمجبوا للظلم يعشى أمة      فتنوء منه بفادح الاثقال  
ظلم الرعية كالعقاب لجهلها      ألم المريض عقوبة الاهمال

طاهر الطامى

